الحمدُ للهِ العليِّ الأعلى، الولي المَوْلَى، خلقَ فسوى، وقدرَ فهدى .. {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} .. وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ، {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى \* وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى \* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} .. وأشهدُ أن محمداً عبدُ اللهِ ورسولهُ، ومصطفاهُ وخليلهُ، من جاءنا بِالصِّدْقِ والنورِ والهدى، وَأَمَرَنا بالبر والتقوى، خاتمُ الأنبياءِ وأفضلُ المرسلينَ، وسيد الورى، صلى اللهُ وسلَّمَ وباركَ عليهِ وعلى آله نجومُ الدجى، وأصحابهُ شموسُ الضحى، والتابعينَ ومن تبعهم بإحسانٍ وكلُّ من سارَ على نهجهم واقتفى، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا ..

أمَّا بعدُ: فأوصيكم عبادَ اللهِ ونفسي بتقوى اللهِ والعملَ بطاعته، والمجانبةَ لسخطهِ ومعصيتهِ، وأحثُكم على أفضل ما يُدنيكم منهُ، ويقربكم إليهِ: تقوى اللهِ يا عبادَ اللهِ، فتقوى اللهِ خيرُ ما تزودتم، وأحسنُ ما عمِلتُم، وأجملُ ما أظهَرتُم، وأكرَمُ ما أسررتُم، وأفضلُ ما ادَّخرتُم، وهي وصيةُ اللهِ لكم ولمن كان قبلكم: {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ} ..

معاشر المؤمنين الكرام: لَقَدْ دَعَانَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لِلنَّظَرِ وَالِاعْتِبَارِ فِي حَالِ الْأُمَمِ الغابرة، وَالأقوام السابقة، والتي كان لها مواقفٌ وأحداثٌ فيها العبرةُ والفائدة، قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} ..

فتعالوا بنا اليوم نتدارس قصةَ أمَّةٍ من تلك الأمم الغابرة، مَلِيئَةٍ بِالدُّرُوسِ والعظات، وصدق الله: {فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} .. إنها قصةُ قومِ عادٍ يا عباد الله ..

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ \* إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ \* الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ} .. لقد كانتْ عادٌ أمةً مشهورةً بضخامة الأجسامِ وقوَّتِها، وشِدَّةِ بطشها وسطوتها، حتى أن الرجلِ منهم ليبلغ طولُه اثنا عشرَ ذراعًا .. {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، وكانوا يسكنون في منطقة الأحقاف في الربع الخالي، بين حضرموت وعمان، وكانت لهم قوةٌ اقتصاديةٌ وعسكريةٌ عظيمة، قال تعالى: {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ}، وَقد بلغ فِيهِمُ الظُّلْمُ والَجَبَرُوتُ مبلغاً عظيماً، قال تعالى: {وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ} .. وبلغ مِن غِناهم وتَرَفِهم أنهم كانوا ينحتون الجبال بيوتاً فارهين، ويَبنونَها بُنيانًا باهرًا هائلاً من غير حاجة، وإنما لِمُجَرَّدِ اللَّعِبِ، والعبثِ، والتفاخر والتطاول، واستعراض الْقُوَّةِ والبراعة .. قال تعالى: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ} .. ثم إنهم كانوا أولَ من عبدَ الاصنام بعد الطوفان .. فأقبلَ هودٌ يَدعوهم إلى الله: {قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ}، {يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ \* وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ}، ولكنَّ القومَ طغاةٌ متكبرونَ، عُتاةٌ متمردونَ، فقالوا مُستهزئينَ: {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} .. والأنبياءَ عليهم السلام لا يَنتصرونَ لأنفسهِم، {قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ} .. فعارضوه وكذبوهُ، {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}، وقالوا: {يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ \* إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ} ..

فغضِبَ هودٌ عليه السلام غضباً شديداً، وإنما كان غَضبةُ لله، {قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ}، وبالرغم من أنه كان عليه السلام وحيداً، ورغم أن قومه كانوا من القوة والغنى, والجبروت والتمكن, كما وصفناهم، إلا أنّ هوداً عليه السلام تحدَّاهمْ مُنفرداً أن يُصيبوهُ بأذى، وتلك كانت معجزته ﷺ التي تحداهمْ بها: {قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ \* فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ \* إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ \* فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} .. ولكنهمْ مغرورون مُتغطرسونَ، فقد {قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ \* إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ \* وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}، بل إنهم تمادوا أكثر، و{اسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}، فقال اللهُ تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} .. فلما أوغلوا في طغيانهم، أمسَك اللهُ عنهم المطرَ ثلاثَ سنين حتى أجهدهم ذلك وعطِشوا، ثم سَاقَ الله إليهم السُحُبَ العظِيمة، فلما رأوها ظنّوهُا بشائرَ الغيث، فأقبلوا يتباشرون: {هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا}، فجاءهم الردُ ساحقاً ماحقاً مروعاً: {بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ \* تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} .. وما أقلعَتْ الريح عنهم حتى اقتلعتهم من ديارهم، تَضْرِبُ بأحدِهم الْأَرْضَ، فَيَنْشَدِخُ رَأْسُهُ، وَتَبْقَى جُثَّتُهُ هَامِدَةً كَالنَّخْلَةِ إِذَا خَرَّتْ بِلَا سَعَفٍ .. هكذا أهلكهم الله، قال تعالى: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ \* سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ \* فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ} ... أُهِينوا بأهونِ شيء، هواءٌ ساكنٌ تحرك لبعض الوقت فتحول إلى ريحٍ عاتية، دمَّرت كلَّ شيء بأمرِ ربِها \* فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} ... ذهبت القوة إلى غير رجعه، وذهب الغنى والمال، ودُفن العمران الشامخ تحت كثبان الرمال، فهل ترى لهم من باقيه .. نعم: بقيت عليهم اللعنة الخالدة ... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ \* وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ \* وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ} ... أقول ما تسمعون ..

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلاماً على عباده اللذين اصطفى ...

أما بعد: فاتقوا الله عباد الله وكونوا مع الصادقين، وكونوا من {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ} ..

معاشر المؤمنين الكرام: في قصة عادٍ عبرٌ كثيرة، ودروسٌ بليغة ..

من تلك الدروس العظيمة: أن نهاية الظلم أليمةٌ، وعاقبته شنيعةٌ وخيمةٌ، قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}، وقال تعالىك {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا}، وقال جل وعلا: {وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا}، وقال سبحانه وتعالى: {فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا}، وقال تبارك وتعالى: {وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}، وقال عز وجل: {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ..

ومن الدروس البليغة المهمة: أن نُذر الله وتحذيراته للعباد مُستمرةٌ لا تتوقف، قال تعالى: {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ} .. فهي إنذارات ربانيةٌ مستَمِرَّةٌ لا تتوقف .. يقولُ الإمام ابن القيم رحمه الله تعليقاً على قوله تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، يقولُ رحمه الله: "ولم تزل أعمالُ بني آدمَ ومخالفتهِم للرسل تُحدثُ لهم من الفساد العام والخاص، ما يجلِبُ عليهم من الآلام، والأمراضِ، والأسقامِ، والطواعين، والقُحوطِ، والجُدوبِ، وسلبِ بركاتِ الأرضِ، وثمارها، ونباتها، وسلبِ منافِعها، أو نُقصانها، أُموراً مُتتابِعة يتلوا بعضُها بعضاً" .. ثم يقولُ رحمه الله: "ونزِّل هذه الآيةِ على أحوال العالم، وطابق بين الواقعِ وبينها، وأنت ترى كيف تَحدُثُ الآفاتُ والعللُ كلَّ وقتٍ، في الثمارِ والزرعِ والحيوانِ، وكيف يَحدُثُ من تلك الآفاتِ، آفاتٌ أُخرُ مُتلازمة، بعضُها آخذٌ برقابِ بعض، وكلَّما أحدثَ الناسُ ظُلماً وفجوراً أحدثَ لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفاتِ والعللِ في أغذيتِهِم وفواكهِهِم وأهويتِهِم ومياهِهِم وأبدانِهِم وخَلقِهِم وصُورِهِم وأشكالِهِم وأخلاقِهِم من النقصِ والآفاتِ ما هو مُوجِبُ أعمالِهِم وظُلمِهِم وفُجُورِهِم" .. انتهي كلامه رحمه الله ..

فاحذروا الظلم يا عباد الله: فكلُّ من ظَلَمَ ثم لم يتب ولم يُصلِح، فواللهِ لنْ يفلِحَ .. كيفَ واللهُ عزّ وجلّ يقول في كتابه الكريم: {إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}، ويقول جل وعلا: {وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا}، ويقولُ في الحديث القدسي الصحيح: "يا عبادي إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي وجعلتُهُ بينَكم محرَّمًا فلا تَظالموا"، كما أن هدايةُ اللهِ أبعدُ ما تكونُ عن الظالم، فقولُهُ تعالى: {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}، تكرر في عشرِ آياتٍ مختلفاتٍ .. كما أنَّ الآياتِ التي تُبينُ شُؤمَ الظُلمِ وسُوءَ عاقِبتهِ كَثيرةٌ جداً، مِنها قولهُ تعالى: {أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}، {وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ}، {وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}، {إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، {أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ}، {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} .. وغيرها، وغيرها من الآيات .. وفي الحديث المُتَّفَقٌ عَلَيهِ قال ﷺ: "إِنَّ اللَّه لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ"، ثُمَّ قَرَأَ: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}، فمصير الظلَمةِ حالك السواد: {لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}، ومن سنةِ اللهِ الثابتةِ أن ينصُرَ المظلومِ، قال تعالى في الحديث القدسي: (وعزتي وجلالي لأنصرنَّكَ ولو بعد حين) .. فلا تظلمنَّ إذا ما كنَّتَ مُقتدراً .. فالظلمُ آخِرهُ يُفضِي إلى النَّدمِ .. تنامُ عيناكَ والمظلومُ مُنتبِهٌ .. يدعو عليكَ وعينُ اللهُ لم تنمِ ..

فيا ابن آدم عش ما شئت ...